

## تأملات في مسيرة الأستاذة راندي ديغيليم وإسهامها في الدراسات الوصفية

د. معاوية سعيدوني:

باحث وخبير في التاريخ العمراني والتراث، مونتريال، كندا

من التقاليد العلمية التي كانت حاضرة حضوراً راسخاً في دوائر العلم في حضارة الإسلام أيام مجدها وازدهارها، والتي كان لها دور فاعل في استمرار هذه الحضارة وتجذرها، الحرص على التواصل بين الأجيال وعرفان الخلف بفضل السلف والمحافظة على اتصال سلسلة العلوم والمعارف بمختلف أصنافها كأنها حبل متين لا ينقطع. ويرتكز هذا التقليد الحضاري الراقى على تكريم العلم وأهله وحرص المتعلمين على ذكر فضل المعلمين وذكر أعمالهم والتعريف بها وتدوينها ونشرها؛ فيذكر التلميذ أستاذه، ويُعرف العالم بفضل قرينه، ويذكر من تعرف عليه وأخذ عنه في حلقات الدرس والعلم، لا يفرق بين أهل العلم على أساس قومية أو جنس أو دين أو منشأ أو مكانة اجتماعية.

لقد استذكرت هذا الجانب الحضاري في التعامل الإنساني والعلمي -الذي بدأت تفتقده الثقافة الإسلامية في رحلة بحثها عن ذات جديدة في الفترة المعاصرة- في هذه المساهمة الخاصة بتكريم الأستاذة راندي ديغيليم (Randi Deguilhem) بمبادرة من نخبر البحوث الاجتماعية والتاريخية بجامعة معسكر (الجزائر) المشكور على إحياء هذه التقاليد والقيم.

لقد تمكنت الأستاذة راندي ديغيلم بفضل ماثرتها واجتهادها وحيويتها العلمية من أن تصبح رائدة من رواد الدراسات الوقفية في الغرب اليوم، فضلا عن استحقاقها مكانة مميزة في الشرق أيضا بفضل علاقاتها الوثيقة بالدوائر العلمية وتعاملها العلمي النزيه الذي جعلها تتجاوز الصورة النمطية للمستشرق المستعلي أو المتعامل مع الحضارة الإسلامية تعامل الناظر إليها من بعيد بنظرة مخبرية باردة تفتقد التفاعل الإنساني المثمر.

لقد تمكنت الأستاذة راندي ديغيلم خلال مسيرتها العلمية الطويلة التي بدأت منذ ما يقارب أربعين سنة من ربط علاقات علمية متشعبة، وطرحت إشكاليات بحثية متنوعة ومُجدّدة، وحاولت مجتهدة إخراج الدراسات الوقفية من الحيز التاريخي والتراثي الضيق إلى طرح الأبعاد المعاصرة للوقف ودوره الكامن كإحدى آليات استرجاع المجتمعات الإسلامية المعاصرة لذاتها انطلاقا من أدوات تنظيم اجتماعي واقتصادي أوجدتها عبقرية الثقافة الإسلامية بما يتلاءم مع روحها وقيمها.

هذا وجسدت مسيرة الأستاذة راندي ديغيلم العلمية تجاوز الحواجز القومية والأطر الجغرافية الضيقة في التعامل العلمي المعاصر، فقد وُلدت ونشأت في الولايات المتحدة، ودرست دراساتها الجامعية الأولى بها حيث بدأ اهتمامها بتاريخ الحضارة الإسلامية، قبل أن تنتقل إلى فرنسا حيث بنت سمعتها العلمية بصبر وكد، وأثناء ذلك قضت فترات إقامة طويلة في العالم الإسلامي

(سوريا)، وربطت علاقات في جميع بقاع العالم غربا وشرقا مع المهتمين بالدراسات الوقفية في العالم الإسلامي والحيز الغربي والمجال الآسيوي.

وبالإضافة إلى نشاطها في مجال التعليم وإدارة البحوث والإشراف العلمي، أسهمت الأستاذة راندي ديغيلم إسهاما يُعتد به في مجال النشر الأكاديمي وتنظيم الملتقيات العلمية الناجحة ذات البعد الدولي وإدارة مشاريع البحث متعددة الأطراف، مما جعل تأثيرها لا يتوقف على الأبعاد الأكاديمية البحتة، بل يمتد -ولعل هذا هو الأهم- إلى ربط علاقات شخصية وعلمية متينة مع الباحثين زملاءً وطلبةً، مما كان له أثر إيجابي على الدراسات التاريخية والاجتماعية المتعلقة بالوقف.

حصلت الأستاذة راندي على الدكتوراه في التاريخ في اختصاص الشرق الأوسط من جامعة نيويورك (New York University) عام 1986، ولم تكن أطروحتها نتيجة مقارنة وثائقية منقطعة عن الواقع، فقد مهّدها حصولها على منحة فولبرايت-هايز (Fulbright-Hays) في بداية ثمانينيات القرن الماضي والتي سمحت لها بالتنقل إلى الشرق (سوريا) حيث اطلعت على الوثائق المحلية وعينت عن قرب واقع المجتمع العربي الإسلامي المعاصر، علما بأن هذا الاطلاع وتلك المعاينة تعتبر المنطلق الضروري لكل من أراد البحث جديا في تاريخ الحضارة الإسلامية وأبعادها المعاصرة، ولعل هذا ما يفسر تكرار إقاماتها العلمية في دمشق حتى بعد حصولها على

شهادتها العلمية الأولى، والتي كان له أثر بالغ في تمتين تكوينها العلمي. وبعد حصولها على شهادة الدكتوراه، طرقت الأستاذة راندي ديغيلم أبواب الأطر الأكاديمية للبحث العلمي، واضطلعت بمهمات بحثية واستشارية عدة. ولعل حجر الزاوية في مسيرتها العلمية التحاقها بمركز البحث العلمي الفرنسي (CNRS) حيث لا زالت تنشط حتى الآن تعليمًا وإشرافًا وبحثًا واستشارةً.

إن أهم ما يُستخلص من التكوين الأكاديمي للأستاذة راندي ديغيلم هو تنوع أبعاده الذي كان له أثر في تشكيل شخصيتها العلمية، فهو تكوين ثلاثي الأبعاد: بعدُ أنكلوسكسوني بحكم النشأة والتكوين الأصلي في الولايات المتحدة، وبعدُ عربي بحكم الإقامة في سوريا والاتصالات الكثيفة بالعالم العربي، وبعدُ فرنسي بحكم الانتساب إلى الدوائر الأكاديمية والعلمية بفرنسا. ويمكن الجزم بأن هذا التنوع في منابع التكوين كان لها دور معتبر في تكامل شخصيتها العلمية وفي انفتاحها على ثقافات وسياقات علمية مختلفة بحيث اكتسبت مكانم القوة في كل منها: براغماتية وفاعلية العقل الأنكلوسكسوني وتعامله الواقعي والمباشر مع ظواهر الحياة، ومرونة العقل العربي وتعطشه للمعرفة الحديثة بعد سبات طويل، وصرامة العقل الفرنسي وحرصه على الالتزام بالمنهج العلمية الدقيقة. كما أن هذا التنوع في التكوين يفسر إلى حد ما سهولة وبساطة ومرونة تعامل الأستاذة راندي ديغيلم مع الأكاديميين والباحثين بمختلف منطلقاتهم البحثية وانتماءاتهم الأكاديمية.

أنجزت الأستاذة راندي رسالتها الجامعية الأولى التي حصلت بها على الدكتوراه في موضوع «تاريخ مؤسسات الوقف مع دراسة نماذج من مدينة دمشق في العهد العثماني وفي فترة الحماية الفرنسية»،<sup>1</sup> فكان ذلك منطلقها لمسيرة طويلة في الدراسات الوقفية، فكتبت في مواضيع عامة واهتمت بجوانب دقيقة متعلقة بالوقف.

فمن المواضيع العامة التي تطرقت لها نذكر إسهامها في إبراز دور وثائق الوقف في البحث التاريخي والاجتماعي والثقافي الخاص بالبلاد الإسلامية وخاصة منطقة الشرق الأوسط، وتناولها لمسألة منهجية دراسة وتحليل دفاتر الوقف المتوفرة باعتبارها نافذة على الواقع التاريخي للمجتمعات الإسلامية، تسمح بإخراج كتابة تاريخها من عموميات وأدبيات التاريخ الحديث والملحمي إلى الحقيقة التاريخية القائمة على دقائق الحياة العملية واليومية للأفراد والجماعات.<sup>2</sup>

<sup>1</sup> Randi Deguilhem : *History of the waqf foundations and case studies from Damascus from Ottoman and Mandatory Periods*, PhD, New York University, 1986, 444 p.

<sup>2</sup> Randi Deguilhem : « Les documents de waqf : source polyvalente. Le cas de Damas au 19<sup>e</sup> siècle », in Daniel Panzac, éd., *Les villes dans l'Empire ottoman. Activités et sociétés*, Paris, Éditions du CNRS, pp. 67-95, 1991, 191-203.  
- Randi Deguilhem : « Les documents de waqf pour comprendre l'histoire socio-économique de l'Empire ottoman », *Actes du VII<sup>e</sup> congrès du CIEPO à Peçs (Hongrie) en 1986*, Ankara, Türk Tarih Kurumu Basimevi, 1994, pp. 35-41.

وهذا ما أدى بها إلى الاهتمام بآليات تنظيم الوقف وتسييره النابعة من خصوصيات المجتمعات الحضرية الإسلامية المحلية، والتي سمحت بتسيير الأوقاف والحفاظ عليها وتنميتها مثل آلية «المرصد» المطبقة على الملكيات الوقفية في دمشق<sup>3</sup> (والتي تقابلها في مدينة الجزائر مثلاً آلية العناء).

ومن خلال هذه المقاربة، اتخذت الأستاذة راندي ديغيلم - على شاكلة باحثين آخرين تقرر دائماً بفضلهم لعل أبرزهم في الجزائر الأستاذ ناصر الدين سعيدوني وفي سوريا الأستاذ عبد الكريم رافق- وثائق الوقف كأداة متعددة الأبعاد تطرح إشكاليات أوسع لفهم حركية المجتمع تتعدى الوقف كظاهرة دينية مجتمعية في حد ذاتها، ولعل هذا هو الجانب الأهم في الدراسات الوقفية المعاصرة الرامية إلى الابتكار والتجديد والتي تنظر إلى الوقف ليس كمجرد هدف في حد ذاته وإنما كوسيلة لتوسيع آفاق البحث التاريخي والاجتماعي والاقتصادي.

ومن هذا المنظور العلمي كان الوقف ومحتوى وثائقه بالنسبة للأستاذة راندي ديغيلم منطلقاً لطرح إشكاليات ومقاربات تتعلق بمواضيع شتى من قبيل اللغة والثقافة الشعبية ونظم التعليم والحياة السياسية والفكرية ووعي المجتمع ومكوناته المختلفة بذاتها في العهد

<sup>3</sup> Randi Deguilhem : « Le prêt de mursad sur les propriétés en waqf », *A Way Prepared : Essays on Islamic Culture in Honor of R. Bayly Winder*, in Farhad Kazemi et Robert D. McChesney, éd., New York University Press, NYC, 1988, pp. 68-79.

العثماني وفترة الحماية الاستعمارية خاصة بمدينة دمشق مجال بحثها المفضل.

يتضح لمن اطلع على دراسات الأستاذة راندي ديغلييم وتعرف على منطلقاتها العلمية أن ما يهمها ليس الوقف في حد ذاته كظاهرة تاريخية أو مجال اجتهاد فقهي بحت، وإنما ما يُستخلص منه لفهم حركية المجتمعات الإسلامية وصراعاها من أجل الانتقال من حالة ما قبل الحداثة إلى عالم المعاصرة، إما قسرا عن طريق الاستعمار وإما طوعا بواسطة الإصلاحات وإعادة تصور التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وعلاقة الأفراد والجماعات بالشأن العام.

وهذا ما يؤكد بالنسبة لها أهلية الدراسات الوقفية لأن تكون أحد أهم ميادين مقارنة إشكالية التحديث والتغريب من خلال آثار الصدمة الاستعمارية في المجتمعات الإسلامية وما انجر عنها من سياسات دينية اعتمدها القوى الاستعمارية في ديار الإسلام أو محاولة أنظمة الحكم المحلية التي حافظت على ظاهر سيادة شكلية مجارة النظم المعاصرة من خلال الإصلاحات، ودخول أفكار وتصورات وسلوكات جديدة أوجدت معادلة أخلت بتوازن الثقافة التقليدية المتوارثة وذلك من خلال تطور نظام التعليم الذي كان له إسهام بالغ في تحول نظرة المجتمعات الإسلامية للحياة والعالم المعاصر، وما نتج عن ذلك من ازدواجية لا زالت تلازم العقل العربي والإسلامي الذي تتجاذبه قوى التقليد والموروث الثقافي وقوى المعاصرة والاندماج في العالم الحديث وما يتصل بذلك من

إعادة تصور علاقة الدولة بالدين ودور الدين في نظام الدولة ومفهوم المواطنة والعلمانية.<sup>4</sup> كل هذه المواضيع المطروحة بجدة على العالم الإسلامي المعاصر تنبّهت لها الأستاذة راندي ديغيلم ووجدت طريقا لها من خلال الوقف ودراسة وثائقه.

وفضلا عن إشكالية التحديث يعتبر الوقف بالنسبة للأستاذة راندي ديغيلم مدخلا لدراسة طبيعة الحياة الحضريّة الإسلاميّة وإبراز خصوصيّتها وعبقريّتها نظرا للدور الذي لعبه في تشكيل صورة المدينة الإسلاميّة وفي تنظيم العلاقات الاجتماعيّة والاقتصاديّة والسياسيّة داخلها. فنظام الوقف ساهم، إلى جانب فقه النوازل والحسبة، في تحديد حركة المدينة الإسلاميّة، وبدونه لا يمكن فهم ميكانيزمات تأسيس وتسيير بعض المنشآت الحضريّة وكيفية تأديتها لوظائفها في المدينة الإسلاميّة التاريخيّة. وللوقف في مجال العمران بعد معاصر لأنه يندرج ضمن ما يُسمى اليوم بالمصلحة أو المنفعة العامّة، فقد كان ويمكن أن يكون أداة لتشكيل المجالات الحضريّة، بحيث ترتبط به مرافق دينيّة وخدمية ومدنيّة عديدة فيما يتصل بإنشائها وتمويلها وصيانتها وتسييرها. وهذا ما جعل الدراسات العمرانيّة الحديثّة ذات الصلة بالأوقاف تحاول إبراز دورها في تطور المدينة الإسلاميّة وإظهار العلاقة المباشرة بين الأوقاف والتهيئة العمرانيّة وتاريخ الأحياء والقطاعات الحضريّة في

<sup>4</sup> Randi Deguilhem : « Réflexions sur la laïcisation de l'éducation dans l'Empire ottoman au XIXe siècle : les provinces syriennes », *Encyclopédie de la civilisation turco-ottomane*, Ankara, Yeni Turkiye, 2000, p. 662-668.



المدن والعالم المعمارية والمباني الخدمية التي كانت تؤمن صيانتها الأملاك العديدة الموقوفة عليها؛ كما أنها تُوظف وثائق الوقف لمعرفة التراث المعماري والمصطلحات والمفاهيم التي قام عليها. وقد كان للأستاذة راندي ديغيلم إسهام في طرق هذه الأبواب البحثية والتشجيع على ولوجها، فلم يكن غريبا إذا أن تُختار لأن تكون صاحبة الدراسة المخصصة للوقف في الكتاب الجماعي الذي خصصته مجموعة من أبرز الباحثين للمدينة في العالم الإسلامي، فكتبت بحثا مميزا في موضوع «الوقف في المدينة».<sup>5</sup>

كما يظهر الوقف من خلال الدراسات التي أنجزتها الأستاذة راندي ديغيلم كأحد أهم المؤشرات لدراسة التحولات التي عرفتها المنظومة القانونية في البلاد الإسلامية،<sup>6</sup> فالوقف مقياس يسمح بمقاربة تطور الفقه الإسلامي ومرونة الأحكام الشرعية المتعلقة به والتي تعكس قابلية المنظومة القانونية الإسلامية لمسيرة التحولات الاجتماعية والاقتصادية العميقة التي شهدتها المجتمعات الإسلامية والتي تسارعت في الفترة الحديثة، وتظهر مرة أخرى، من خلال

<sup>5</sup> Randi Deguilhem : « Le waqf dans la ville », in Salma K. Jayyusi (direction générale) avec Renata Holod, Attilio Petruccioli et André Raymond, *La ville dans le monde musulman*, Leyde, Brill, 2008, pp. 923-950.

<sup>6</sup> Randi Deguilhem : « Droit musulman : usages nouveaux des institutions anciennes », *Annuaire Droit et Religions*, volume 3, Presses de l'Université Paul Cézanne, Faculté de Droit et de Sciences Politiques, collection « Droit et Religions », dirigée par Blandine Chelini-Pont, Aix-en-Provence, France, 2008, pp. 125-130.

ظاهرة الوقف، التجاذبات بين قوى التحديث والعصرنة من جهة والقوى الداعية للتمسك بالمؤسسات القديمة والأصالة.<sup>7</sup>

ومما يضيفي على الوقف أهمية بالغة بالنسبة للمهتمين باستشراف تطور المجتمعات الإسلامية كونه ظاهرة تلتقي فيها مصلحة الفرد ومتطلبات المجتمع، فأكدت الأستاذة راندي ديغيلم على هذا الموقع المتميز لمؤسسة الوقف الذي يجعلها أحد أهم المدخل لرسم ملامح شخصية الفرد في المجتمعات الإسلامية، وهو البعد الذي ظل مهماً في الدراسات الغالبة التي تهتم عادةً بحركة المجتمع أساساً. فتأسيس الأوقاف يعبر أولاً عن إرادة الفرد وحرصه على مصلحته الدنيوية ورغبته في الثواب الأخروي، كما أنه يعكس ثانياً إرادة المجتمع في التكافل والتضامن. ولعل البحث عن هذا التوازن الدقيق بين إرادة الفرد ومصلحته وإرادة المجتمع ومتطلباته هو الذي جعل الأستاذة راندي ديغيلم تشارك خلال تسعينيات القرن الماضي مشاركة محورية في مشروع البحث الدولي المعنون «الفرد والمجتمع في العالم الإسلامي المتوسطي».

لقد تأكد اهتمام الأستاذة راندي بدور الوقف في رسم علاقة الفرد بالمجتمع باعتباره آلية ترسيخ البناء الاجتماعي والسياسي خلال السنوات الأخيرة بأن أصبح محور نشاطها البحثي والتعليمي،

<sup>7</sup> Randi Deguilhem : « L'opposition au rattachement du waqf à l'État : l'exemple syrien », in Tony Allan, Diana Gur and Fiona Barr, éd., *Actes du congrès du BRISMES à SOAS (School of Oriental and African Studies)*, Londres en 1991, Londres, SOAS, 1991, pp. 223-230.

فهي تشرف اليوم على سمينار البحث في مدرسة الدراسات العليا في العلوم الاجتماعية بباريس (EHESS) في نفس الموضوع بحثا وتعلّما.

لقد أصبح الوقف منذ مطلع العصور الحديثة ميدان حرب باردة بين التوجهين التحديثي والتأصيلي بالنظر إلى قيمته المادية والروحية، فقد رأى فيه التوجه التأصيلي أداة لمقاومة حركية التحديث التي طالت الوقف باعتباره إحدى آليات تنظيم المجتمعات الإسلامية التقليدية وضمنان ديمومتها، كما رأت قوى التحديث أن من واجباتها الملحة إلحاق الوقف بنظام الدولة المركزية بمفهومها الحديث وإعادة هيكلته، وهذا ما حدث بالفعل قبل وخلال الفترة الاستعمارية ثم بعد الاستقلال، بإخضاع الوقف للنظم المستحدثة التي تجعل منه أداة بيد أجهزة الدولة الإدارية وليس ظاهرة نابعة من المجتمع وقائمة على خدمته ومتصلة بجميع مناحي حياته الاجتماعية والاقتصادية والثقافية. ولا ينفصل عن هذه التحولات العميقة التوجه العام لإدماج الوقف في السوق العقارية بواسطة تقنيات مستحدثة مع محاولة الإبقاء على ظاهر الشرعية الدينية.<sup>8</sup>

كل هذا دفع الأستاذة راندي ديغيلم إلى التركيز في أبحاثها على دور الدولة في عملية التحديث من خلال العلاقة بين الدولة المركزية ومشروعها التحديثي من جهة والقوى المجتمعية المحلية

<sup>8</sup> Randi Deguilhem : « Circulation des biens waqf sur le marché immobilier et foncier : à quel point ? Étude comparative de Damas et d'Alger au 18e et au 19e siècle », *Dirassat Insania* (Études Humaines), n° spécial sur *Le waqf en Algérie (18e et 19e siècles) : sources, problématiques et thématiques*, Alger, 2001/2002, pp. 36-57

التقليدية من قبيل السلك الديني وجماعات الحرفيين ومكونات المجتمعات المدنية من جهة أخرى،<sup>9</sup> وهي العلاقة التي اتخذت مظاهر عديدة طوال عملية التحديث الطويلة منذ القرن التاسع عشر وحتى أيامنا هذه، وهي مظاهر تعكس تنوع المجتمعات الإسلامية من مكان إلى آخر وتطور ظروفها الخاصة عبر الزمن.

حاولت الأستاذة راندي ديغيلم تتبع بعض مظاهر هذا الصراع حول الوقف الذي يندرج في الواقع في إطار صراع أوسع حول الروح الإسلامية وطبيعة المجتمع الإسلامي المعاصر. وقد خلصت في ذلك إلى أن «طبيعة» الوقف كأحد أكبر رهانات هذا الصراع، تشهد تغيرات جذرية ومتواصلة كنتيجة مباشرة للتشنج القائم بين الحداثة والتقليد، وكمؤشر لصعوبة التعامل مع الموروث الحضاري في المجتمعات الإسلامية الحديثة. ولعل حل هذه المعضلة يكمن في اتباع الطريق الوسط الذي يعيد تأهيل الوقف كأداة فاعلة في أيدي القوى المجتمعية المستقلة عن الدولة تسمح بظهور مجتمع مدني حقيقي في المجتمعات الإسلامية المعاصرة يستمد نظمه من أصالته ولا يرفض روح العصر. وتظهر تباشير هذا التوجه في الفترة المعاصرة فيما يمكن اعتباره حركات إحياء للوقف بعد عقود من

<sup>9</sup> Randi Deguilhem : « Autorité centrale et pouvoir décisionnel local : gestion des fondations pieuses à Damas à la fin de l'époque ottomane », in Thomas Philipp, Jens Hanssen et Stefan Weber, éd., *L'empire dans la ville : les capitales provinciales arabes à la fin de l'époque ottomane*, Beyrouth, Institut oriental allemand, Beirut Textes und Studien 88, 2002, pp. 219-234

الإهمال والتضييق، والتي تشهدها عدة بلدان إسلامية مثل تركيا أو بلدان الخليج العربي وماليزيا حيث أصبح للوقف حضور لا يستهان به في تطوير ما يعرف بالأنظمة المالية «الإسلامية».

من خلال التطرق لمثل هذه الإشكاليات أسهمت الأستاذة راندي ديغلييم في إخراج الدراسات الوقفية من ردهات الماضي والدراسات التاريخية بمفهومها الضيق إلى آفاق المعاصرة والإشكاليات الساخنة المطروحة اليوم على المجتمعات الإسلامية في ديارها الأصلية وفي ديار الهجرة بالغرب، وهذا ما جعلها تهتم بمسائل أصبحت تؤرق المجتمعات الغربية المتخوفة على مصير هويتها المسيحية الغربية وتفرض تحديا كبيرا على المجتمعات الإسلامية من قبيل مسألة تمويل الممارسة الدينية للمسلمين بفرنسا ومحاولة استخلاص الدروس من تجربة الوقف، أو مسألة العلاقة بين الوقف والمؤسسات الدينية الخيرية في أوروبا والتي ستعرف لا محالة توسعا كبيرا في العقود اللاحقة بفعل تجذر الحضور الإسلامي في الغرب وانتشاره.

وإلى جانب المسائل المجتمعية الكبرى التي يطرحها الوقف من منظور الأستاذة راندي ديغلييم، يمكن قلب الصورة تماما وطرح إشكالية الوقف ليس من منطلق التنظير لصيرورة المجتمع في كلياته وإنما للتطرق لأبعاد بسيطة وتفصيل دقيقة تُكسب المجتمعات خصوصيتها ونكهتها الخاصة، وهي أبعاد قد لا يهتم بها المؤرخ التقليدي أو المنظر والمستشرف إلا أنها تمثل جوانب لا تقوم بدونها

حياة المجتمع اليومية ولا تستقيم، ولا يمكن دونها توصيف طبيعة هذا المجتمع، ويمكن أن نورد من الأمثلة عن هذه الجوانب والأبعاد التي خصصت لها الأستاذة راندي ديغيلم عدة دراسات قيمة: المقاهي ومكانتها الاجتماعية والثقافية،<sup>10</sup> والتعليم ومناهجه وطرق تلقينه والذي يعتبر من أهم المداخل لدراسة عملية التحديث والعلمنة التي تعيشها أغلب المجتمعات الإسلامية منذ القرن التاسع عشر بأشكال ودرجات متفاوتة، وفي هذا الإطار أفردت الأستاذة راندي ديغيلم دراسات عديدة للمدرسة العمومية الحديثة ودورها في عملية التحديث في العالم العثماني في القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين.<sup>11</sup>

ومن الإشكاليات الدقيقة التي تناولتها الأستاذة راندي ديغيلم في أبحاثها عن الوقف دور المرأة في حركية المجتمعات الإسلامية من خلال إسهامها في تأسيس الأوقاف وإدارتها والاستفادة منها، فنظرت إلى الوقف كأحد المؤشرات على وعي المرأة المسلمة بذاتها ودورها الاجتماعي خلافا لما تذهب إليه غالبا النظرة السطحية للمجتمعات الإسلامية كمجتمعات ينعدم فيها دور المرأة. ومما يفند هذا الطرح القاصر الذي تشبث به بعض الدوائر الاستشراقية، أننا

<sup>10</sup> Randi Deguilhem : « Le café et les cafés à Damas et le traité de sayh Gamâl al-Dîn al-Qâsimî », *BEO (Bulletin d'Etudes Orientales)* n° 45, IFEAD, Damas, 1993, pp. 21-32

<sup>11</sup> Randi Deguilhem : « Réflexions sur la laïcisation de l'éducation dans l'Empire ottoman au XIXe siècle : les provinces syriennes », *Encyclopédie de la civilisation turc-ottoman*, Ankara, Yeni Turkiye, 2000, p. 662-668

لا نجد تفريقاً بين وقف المرأة ووقف الرجل في المجتمعات الإسلامية تأسيساً وتسييراً وانتفاعاً، مما يجعل الوقف أحد مظاهر المساواة الاجتماعية والمالية بين الجنسين، فلا تفرق بينهما في الشرع والفتاوى ونصوص الوقفيات التي تضمها دور الأرشيف المختلفة.<sup>12</sup>

بالإضافة إلى دورها البحثي والتعليمي، تعتبر راندي ديغيلم، فضلاً عن إنتاجها الفردي المتنوع، من أنشط الأكاديميين العاملين على نشر الدراسات الوقفية والتعريف بها بين جمهور الباحثين المختصين والقراء المهتمين عموماً، وهذا ما يظهر فيما جمعته وقدمته في شكل كتب جامعة من أعمال أنجزها باحثون في المجال في مواضيع شتى، ونذكر من هذه الكتب على سبيل المثال: كتاب الوقف في الحيز الإسلامي كأداة للسلطة الاجتماعية والسياسية، وكتاب الفرد والمجتمع في العالم المتوسطي الإسلامي: أسئلة ومصادر، والكتاب الذي خصّته به حضور النساء في المصادر العربية.<sup>13</sup>

<sup>12</sup> Randi Deguilhem : « 'Gender Blindness' et l'influence sociétale à Damas à la fin de l'Empire ottoman : des femmes qui créent et administrent les fondations pieuses », *HAWWA : Revue de la femme au Moyen-Orient et du monde musulman* n° 1/3, Leyde, Brill, 2003, pp. 329-350

<sup>13</sup> Randi Deguilhem (dir.) : *Le waqf dans l'espace islamique. Outil de pouvoir socio-politique*, préface par André Raymond, Damas, IFEAD/Paris, Éditions Adrien Maisonneuve, 1995, 437 p.

- Randi Deguilhem (dir.) : *Individu et société dans le monde méditerranéen musulman. Questions et sources*, préface par Robert Ilbert, Aix-en-Provence, Paul Roubaud, 1998, 160 p.

إن تجربة الأستاذة راندي ديغيلم البحثية الفريدة والرائدة تثبت أن الدراسات الوقفية قد تتسع دائرتها أوتضيق حسب منظور الباحث وتكوينه والإشكاليات التي يطرحها، وقد تتفرع دروبها في شعاب التاريخ والسياسة والاقتصاد وعلم الاجتماع، إلا أن محورها الثابت وركيزتها الأساسية تبقى دائما الوثيقة الوقفية التي تتخذ أشكالا عديدة وتخدم أغراضا مختلفة، فهي قد تكون مثلا الوثيقة التأسيسية أو ما يُعرف بـ«الوقفية»، أو مصنفاً الأحكام المتعلقة بالأوقاف، أو الفتاوى والنوازل الخاصة بها، أو العقود المتعلقة بها والمعتمدة لضمان ديمومتها وفاعلية تسييرها مثل عقود الكراء والرهن والمعاوضة وغيرها من الصيغ، كما لا يجب أن نستثني في ذلك قوانين الوقف المعاصرة الموضوعة في إطار حركية التحديث.

لا غرابة إذاً أن أبحاث الأستاذة راندي ديغيلم تقوم كلها على المكانة المحورية للوثيقة الوقفية التي هي شاهد مادي على عراققة المجتمعات الإسلامية وخصوصية بنائها الحضاري والمجتمعي المعقد وحرصها على تسيير شؤونها حسب أنظمة دقيقة مقننة نابعة من أصول الشرع ومتجاوبة مع ظروف البيئات والعصور المختلفة. فمهما اتسع أفق الباحث يكون لزاماً عليه الرجوع إلى الوثيقة وقراءتها قراءة متفحصة تسمح باستخلاص خصائص المجتمع الذي أنتجها، فهي بمثابة المرآة العاكسة لهذه الخصائص، يمكن أن

- Randi Deguilhem and Manuela Marin (CSIC, Madrid) : *Writing the Feminine : Women in Arab Sources*, London, IB Tauris, 2002, 278 p.



يستخلص الباحث من تطور صياغاتها وسياقاتها ومصطلحاتها تطور المجتمع وتعامل الأفراد داخله وعلاقتهم بالثروة المادية والأبعاد الروحية التي تقوم عليها المجتمعات الإنسانية.

إن الدور البارز الذي قامت به الأستاذة راندي ديغلييم دون كلل أو ملل من أجل تطوير الدراسات الوقفية خلال العقود الأخيرة أوجب على المهتمين بهذا المجال والذين كان لهم حظ التعامل معها التذكير بإسهامها المحوري وخاصة محاولة استخلاص الدروس منه واستقراء أبعاده المختلفة؛ وإنها لتستحق هذا الذكر ليس فقط بالنظر لقيمتها العلمية، وإنما أيضا لشخصيتها الإنسانية المتصفة بخصال حميدة من قبيل الوفاء والاحترام وتقدير العلم وأهله؛ فلعلّ هذه الشهادة تكون تعبيراً عن تقدير علمها وشخصها لتنتفع بها الأجيال الحالية واللاحقة في بحثها عن نماذج يُقتدى بها في سلوكها الأكاديمي وتعاملها الإنساني.

